الريف المصرى وطرق إصلاحه

لحضرة صاحب السعادة فؤاد أباظه باشا

المدير العام للجمعية الزراعية الملكية

ريف مصر فى حالته الحاضرة مظهر من مظاهر التأخر الشائن فى أمة ناشئة تريد أن تتبوأ مركزها بين امم العالم . والقاهرة عاصمة البلاد المصرية ، والاسكندرية ، وبعض المدن الأخرى القليلة ، لا يحجب زخرفها وأنواع الترف والملاهى فيها ذلك البؤس وذلك الشقاء المخيمين على ريف مصر . فتلك المدن أشبه ما تكون بقشرة من ذهب تغطى قطعة صدئة من خبيث المعادن .

وقد يعجب الزائر الأجنبى بما فى القاهرة من عظمة و روعة ومدنية ، ولكن سرعان ما تزول تلك المرئيات من مخيلته عند ما يتغلغل فى الريف ويرى سكنى الفلاح ومعيشة الفلاح .

فالفلاح المصرى ضحية قانعة . هو ضحية الجهل والخرافات التى تأصلت فى نفسه منذ أحقاب طويلة ، وهو ضحية الأنانية ، أنانية من يستغلونه دون أن يفكروا فى العمل لصالحه ، ومع ذلك فهو صموت صبور منصرف الى عمله يجد ونحن نجنى ثمار هذا الاجتهاد وهذا الكد . وهو يشقى لإسعادنا ويتعب لراحتنا . يجد لننعم ونفرح ويكد لنلهو ونمرح ، ونحن عنه غافلون لا نفكر أين ينام هذا المخلوق وكيف يأكل وأى ماء يشرب .

وقد لفت موضوع الريف فى المدة الأخيرة نظر المصلحين والباحثين والحكومات ، وأجمع الكل على أنه لا بد من أن تتناوله يد الاصلاح بشتى أنواع التمدين والتهذيب فالمسألة كما ترى ليست مسألة رحمة ولا شفقة ، تسوقنا الى الدعوة لإصلاح الريف إصلاحا يبنى حاجزا متينا دون تطرق المبادئ والمذاهب التى يشكو منها معظم الأمم ، تلك المبادئ التى أصبحت خطرا على كيان العمران إن لم تحسن معالجتها .

وقد اختلفت الاراء فيما ينبغى عمله فى سبيل إصلاح حالة الفلاح . وعند ما أقول إصلاح حالة الفلاح أقصد إصلاح الريف أيضا ، فان أحد عشر مليونا من المصريين والمصريات على الأقل يسكنونه ويشتغلون بالفلاحة فيه ، وأولئك هم كثرة سكان مصر البالغ عددهم ستة عشر مليونا .

وفى الريف تتركز ثروتنا العقارية من زرع وضرع . وكل مصرى لا تربطه بالريف رابطة القربى ولا يمت لأسرة فيه بصلة لا يمكن أن يكون مصريا صميما . فإذا تكلمنا عن الحياة الريفية فإنما نتكلم عن مصالحنا ، ومصالح أسرنا ، وثرواتنا ، وإذا عملنا على تحقيق التقدم فى الريف فإنما نعمل على تقدم البيئة المصرية فى مجموعها .

ويمكن تلخيص العوامل الأساسية للإصلاح فيما يأتى :

(١) تحسين مسكن الفلاح .

(٢) تحسين حالته الصحية .

(٣) تحسين مستواه التعليمى .

(٤) تحسين مياه الشرب .

(٥) تحسين حالته المعيشية والاجتماعية والمالية .

وهذه كلها مسائل لا تدعو حالتها فى الوقت الحاضر إلى الارتياح ، ولا تزال سبل إصلاحها تتداولها المباحث الحكومية والأهلية . ولا بد لها من تنظيم وسائل الإرشاد الزراعى ، وتوجيه التعليم فى القرى الى ما فيه مصلحة الفلاح ، وكذلك توجيه أعمال الجمعيات التعاونية والمجالس الزراعية القروية وغيرها من الهيئات بحيث تتمشى مع حاجة الفلاح . وقد نشأ عن النقص فى كل ذلك أن زهد أهل الريف فى ريفهم البديع فهجروه الى المدن والعواصم .

ولقد حال الجمعية الزراعية الملكية ما يتكبده هذا الفلاح من عناء فى عمله لا يعوض بعده براحة فى منزله وفى حياته الخاصة ، مما حمله على ترك الريف إلى المدن ، لما يجده فيها من حياة مسلية تجذبه أنوارها و يروقه زخرفها ، فرأت الجمعية أن تأخذ بيده فى هذه الناحية وأن تعمل على إصلاح القرية وتحسينها ، فشيدت عزبة نموذجية بناحية بهتيم القريبة من محطة شبرا افتتحتها فى نوفمبر سنة ١٩٣٤ وألحقتها بعزبة أخرى روعيت فيها الشروط الصحية مع الاقتصاد فى النفقات ، ليكون فى مقدور الملاك إقامة مثلها . وقامت بعمل ثالث هو إصلاح قرية قديمة بقدر الإمكان وبأقل التكاليف ، فى إحدى القرى المقامة على الأراضى الزراعية التى اشترتها الجمعية فى بهتيم .

ولقد قمت أنا ببناء عزبة خاصة لى على أساس هذه النظم فى مركز منيا القمح بمديرية الشرقية .

وإنى ألفت النظر إلى ما وصلت إليه من النتائج بعد المباحث الكثيرة وهو أن العامل الأساسى فى سوء حالة الريف إنما هو قلة المال اللازم لإصلاحه .

لذا يجب أن نتوجه فى إصلاحه إلى أقل التكاليف الممكنة ، وقد خرجت من ذلك بالنصح بإقامة الأبنية بالطوب "النى" فالبناء به يوفر خمسة أسداس النفقات .

ومن دواعى سرورى أنى شاهدت بنفسى فى ولايتى كاليفورنيا وأريزونا بأمريكا فى صيف العام الماضى بيوت الفلاحين وبعض مكاتب وزارة الزراعة نفسها وبعض الفنادق فى المدن، مبنيا بالطوب "النى" وقد نجحت هذه الأبنية نجاحا باهرا ، خصوصا فى تطرية الجو فى هاتين الولايتين .

وإن وجوه الشبه بين هاتين الولايتين وبين مصر لعديدة، فهنا وهناك التشابه فى الصحارى والجبال ، وفى طرق الرى ، وفى زراعة القطن والنخيل ، وفى حرارة الجو . وقد جاء كل ذلك مصداقا لوجهة نظرى من سنوات فى تفضيل الطوب "النى" فى بناء العزب والقرى فى الوجه القبلى، وفى أكثر من النصف الجنوبى للوجه البحرى، والفرق كبير جدا بين تكاليف البناء بهذه الطريقة ، وبين تكاليف البناء بالحجر أو الأسمنت المسلح أو الطوب الأحمر .

ومن رأيى أن يبدأ الخط الفاصل بين مبانى الطوب الأحمر والطوب الأخضر "النى" من القنطرة على قنال السويس مارا بجنوب بلدة "تلراك" بالشرقية ، "والسلبلاوين" بالدقهلية وبحرى محلة روح بالغربية وبحرى إيتاى البارود بالبحيرة إلى أبى المطامير .

وبعد فهذا بيان تفصيلى عن القريتين اللتين شيدتهما الجمعية الزراعية فى بهتيم .

بنيت القرية النموذجية الأولى جميعها بالطوب الأحمر (ضرب السفرة) وعملت سقوفها من الأسمنت المسلح ، وجعلت "الأرضية" أعلى من سطح الأرض بمقدار ٣٠ سنتيمترا .

وارتفاع سقوف المنازل عن الأرض يبلغ أربعة أمتار، وقد جعلت المنازل متفاوتة السعة فمنها ٢٠ منزلا مساحة الواحد ٨٠ مترا مربعا ويتألف من غرفتين وحوش غير مسقوف وحظيرة يحتفظ فيها الساكن بماشيته . وبكل منزل مرحاض بنى على أصول صحية تناسب البيئة ، وخصصت هذه المنازل لسكنى أسرة تتألف من رجل متزوج وذويه ومنها عشرة منازل أكبر حجما من الأولى، مساحة الواحد منها ١٣٠ مترا مربعا ، ويتألف من ثلاث غرف وصالة وبها الملحقات الأخرى ، أى حظيرة الماشية والحوش والمرحاض . وخصصت هذه المنازل العشرة لسكنى أسرة كبيرة تتألف من رجلين متزوجين وذويهما ، بمعنى أنها تضم والدا وولده متزوجين . وجهزت الغرف بالنوافذ الكافية . وقد بلغت تكاليف المنزل الصغير ١٢٥ جنيها والمنزل الكبير ١٩٦ جنيها .

ويتضح من ذلك أن سعة هذه المنازل كافية وافية، يجد عاملنا الراحة إذا أوى اليها وتجد الشمس والهواء — وهما طبيبه الطبيعى — سبيلهما إلى داخلها .

ولم نبن أفرانا داخل الغرف ، لأننا نفترض أن الغرف المنشأة على هذه الطريقة تكون بفضل إحكام سقفها ونوافذها واقية من البرد أكثر من الغرف القديمة المسقفة بالأحطاب .

أما الماء فمصدره بئر ارتوازية ترفعه منها آلة إلى خزانين أكبرهما يسع ٤٨ مترا مكعبا لتغذية مرافق ساكنى العزبة والجامع والحمامات "والدوار" والاسطبلات ومنازل موظفى المزرعة ، والخزان الثانى يسع ١٦ مترمكعباً ويغذى الأمكنة العالية والمخصصة لسكنى الموظفين الفنيين الذين يقومون بتجارب الأقسام الفنية وقسم تربية الحيوانات فيشرب الجميع ماء نقيا غير ملوث .

ولاعتبارات اقتصادية لم نستطع إعداد معدات الماء لمنازل العمال ولكن لم تفتنا هذه المسألة الحيوية : وهى وجوب تيسير سبل النظافة والطهارة ، فأنشئت ستة حمامات يستمد الماء منها "بالدش" والحنفية ، وخصصت أربعة منها للرجال واثنان للنساء منعزلان عنها تماما . ويمكن استعمال هذه الحمامات لغسل الملابس أيضا .

ولم نغفل الحالة الاجتماعية لسكان العزبة فخصصت لهم " مضيفة " فسيحة تسع نحو ٧٠ شخصا ، يتخذونها ناديا للسامرة ، كما انها تكون مكانا فسيحا لليالى التى تقام فيها أفراحهم ومآتمهم .

أما الناحية الدينية فقد أوليت قسطها من العناية . فأنشئ الجامع وجعلت مساحة صحنه ٦٠ مترا مربعا وأعدت به دورة للمياه وميضأة حسب المواصفات الصحية ، وتقام فيه الآن الشعائر الدينية .

كذلك لم تفتنا الناحية الخلقية السليمة ، ناحية التهذيب المعقول ، فى حدود البيئة ، التهذيب الذى يرقى من شمائل الرجل ويعلو بتفكيره ولكن لايخرجه عن بيئته ولا يبث فيه روح التمرد عليها فأنشئت مدرسة تسير على نظام التعليم الإلزامى ، يربى فيها الأحداث بنين وبنات من أبناء العمال وقد أنشئ بالعزبة دكانان يجد العمال فيهما الضروريات فلا يتكلفون مشقة الانتقال إلى العزبة المجاورة لشراء حاجاتهم . وقد خصصت قطعة من الأرض مساحتها نحو ١٩ قيراطا ينتفع بها قاطنو العزبة فيودعون بها أحطابهم والسماد الذى تخلفه ماشيتهم إلى غير ذلك من المنافع .

وللعزبة دوار مساحته ١٩٨٠ مترا مربعا ، يحتوى على ستة مخازن للحاصلات الزراعية ومؤونة المواشى والآلات الزراعية ، وينفصل كل مخزن عن الآخر تبعا لتنوع الحاصلات ويشمل الدوار أيضا حظائر ماشية العمل .

وقد بلغت تكاليف إنشاء العزبة مبلغ ١٠٣٥٨ جنيها وهو مبلغ لا طاقة للأفراد بانفاقه ، ولذلك رأت الجمعية إنشاء عزبة نموذجية أخرى فى بهتيم أيضا تفى بالغرضين ، فتراعى فيها الشروط الصحية مع الاقتصاد فى النفقات ليكون فى مقدور الملاك إقامة مثلها وهى تبعد عن العزبة الأولى بنحو ٦٠٠ متر .

وتبلغ مساحة العزبة نحو فدان مربع من أرض المزرعة ، وهذه المساحة تشمل المبانى والطرقات . وتتألف المبانى من عشرين منزلا ، بنيت من أربعة نماذج مختلفة لتكون بمثابة معرض لبيوت الفلاحين بحيث يمكن لكل مالك أن يختار النموذج الذى يراه موافقا له ولحالة المنطقة التى ستقام العزبة فيها ولحالته أيضا .

وقد روعى فى وضع هذه العزبة أن تكون على أربعة صفوف تتجه من الشرق الى الغرب ، ورتبت الصفوف بحيث انقسم الصف الأول الى كتلتين يفصل بينهما شارع عرضه ستة أمتار ، وجعلت كل كتلة منهما مكونة من أربعة منازل متلاصقة ، زيادة فى الاقتصاد ، وواجهة كل منزلين مضادة للمنزلين الآخرين . أما الصف الثانى فمكون من كتلتين أيضا ، تؤلف كل منهما منزلين فى اتجاه واحد ، وكذلك قسم الصفان الثالث والرابع .

وقد جعل بين كل صف وآخر شارع عرضه ستة أمتار . ومن هذا الوصف يظهر بوضوح أن الشمس تلقى أشعتها على جميع المنازل طول النهار ، وقد شيدت المبانى من الطوب الأخضر (اللبن) " ومونة " الطين والرمل ، وعملت أسقفها من عروق الخشب واللوح " والبرتقة " من " ترصيصة " من الطوب و " الأرضية " أعلى من سطح الأرض بمقدار ٣٠ سم وارتفاع الأسقف عن الأرض ٣,٥ من الأمتار .

وجعلت المنازل مختلفة السعة ، فمنها أربعة سعة الواحد منها ١٢٥ مترا مربعا والمنازل الباقية مساحة كل منها ١١٢ مترا مربعا .

ويتألف كل منزل من غرفتين سعة كل منهما فى أغلبها ٣,٥ فى ٤,٥ متر وبكل منزل "فرن" فى الحوش للحياة المعيشية "كالخبيز" وغيره ، ولبعضها فرن ثان يمتد فى إحدى الغرفتين للتدفئة شتاء ، وفتحته فى الحوش لمنع الأقذار الناتجة من إيقاده .

ولبعض المنازل بالجهة القبلية غرفة عالية لاستعمالها صيفا ، ولكل منزل حوش سماوى مساحته ٣٥ مترا مربعا ، وحظيرة مسقوفة يحتفظ فيها الساكن بماشيته ومساحتها ٣,٥ فى ٤,٥ أمتار مربعة ومرحاض ذو خزان عمل بطريقة تجعل نزحه نادرا .

وقد رأينا أن هناك أسرا قليلة لايحتاج عدد أفرادها الى هذه السعة ، فأفنا بضعة بيوت أصغر مساحة من الأولى ، ولكنها بنفس نظامها وترتيبها ، فأصبحت مساحة البيت منها ٧٥ مترا مربعا بدلا من ١١٢ مترا مربعا . وقد وجدنا أن هذه البيوت توافق كل الموافقة أسرة مكونة من رجل وزوجة وطفلين مثلا . وجهزت الغرف بالنوافذ الكافية .

ومما تقدم نرى أن سعة المنازل وتركيبها ونظامها وافية بالغرض ، خليقة بأن تجعل فلاحنا أرفه حالا وأهدأ بالا .

وقد بلغت تكاليف المنزل الواحد حوالى ٢٥ جنيها كالبيان الآتى :

مليم	جنيه	
٨٠٠	—	حفر الأساسات والخزان .
٢٠٠	٣	أجرة ضرب ٤٠ ألف طوبة سعر ٨ قروش للألف .
—	٢	تكاليف مونة وخلط .
—	٥	"مصنعية" ١٢٥ مترا مكعبا من المبانى سعر أربعة قروش للمتر .
٢٠٠	١	ثمن ٢٠٠٠ طوبة من الأحمر البلدى للخزان سعر ٦٠ قرشا .
٨٠٠	١	تكاليف "دهاكة" جميع المنازل من الداخل والخارج .
—	١	أجرة "مصنعية" للخزان وتكاليف المرحاض .
٨٠٠	١	تكاليف ٧ شبابيك خشب .
٥٠٠	—	تكاليف باب عمومى .
٥٠٠	١	تكاليف أربعة أبواب داخلية .
٥٠٠	٥	تكاليف أسقف خشب تامة .
٧٠٠	—	تكاليف بربقة .
٠٠٠	٢٥	

هذا بعض ما صنعنا لإصلاح حال الريف ، أو بعض ما ينبغى أن يصنع ، ولا يزال فلاحنا فى حاجة إلى المزيد من عناية الحكومة والهيئات العامة والشعب ، على السواء .

فؤاد أباظه